

رؤساء الجمع السابقون للدكتور إبراهيم مذكور

يقوم البحث والدرس على أساس من الخبرة التامة ، والرغبة الأكيدة . والعمل الدؤوب . ولا حياة لهيئة علمية إلا بانتظام عقدها ، وتضافر أعضائها ، وإيمانهم برسالتهم إيماناً جازماً . ومن حسن حظ مجتمعنا أنه قام أول ما قام على رعييل من شيوخ عصره ، بين مصريين ، وعرب ومستعربين ، وكل واحد منهم قمة في بابه وعلم في ميدانه . وتلامهم رعييل بعد رعييل وكلهم خيار من خيار . رسموا الخطة وأقاموا الصرح ، وأدعموا البناء . وساروا في طريقهم في هدوء وحكمة ، وحزم ودقة ووقفوا جهودهم على خدمة اللغة في متنها وتركيبها . وعنوا عناية خاصة بوفائها بمتطلبات العلم والحضارة .

وفي عيد مجمعنا الذهبي أرى واجبا على أن أنوه برؤساء الجمع السابقين الذين حملوا الراية ، وقادوا القافلة ، وأعطوا ما استطاعوا من أوسع علمهم وعظيم خبرتهم . واستمسك بهم زملاؤهم طوال حياتهم ، ولم يحرمهم منهم إلا رحلتهم الأخيرة إلى جوار ربهم وهم ثلاثة كرام تعاقبوا على رئاسة الجمع أربعين عاما ، وما أغناهم عن التعريف وأود فقط أن أشير إلى شيء من جهودهم الجمعية ، وما خلفوه من أثر في صحائف الخالدين .

وأولهم محمد توفيق رفعت الذي قاد السفينة عشر سنوات من عام ٣٤ إلى ٤٤ ؛ وشهد مرحلة التأسيس ، وهي دقيقة عادة . ولكنه استطاع بخبرته الطويلة وزاده الوفير أن يواجه الموقف مواجهة صادقة . وكان الجمع في سنيه الستة الأولى أشبه ما يكون بمؤتمر دولي صغير يضم عشرين عضوا ، نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر من العرب والمستعربين ، والكل مؤمن بالعربية وراغب في النهوض بها لكي تصبح لغة العلم والحضارة ، وتسهم في هذا الميدان إلى جانب اللغات العالمية الكبرى . وكانوا يجتمعون طوال شهرين من كل عام ، ويعقدون نحو خمس وثلاثين جلسة . يغذونها أساسا بخبرتهم وعلمهم الغزير . واستطاع توفيق رفعت أن يحقق معهم تعاوناً تاماً وأخوة صادقة .

وشاء ، وهو الفقيه الضليع والقانونى القديم ، أن يبدأ المجمع عمله بوضع لأئحته التى تنظم عمله وتحدد اختصاص هيئاته . وقضى المجمعون فى ذلك ما يقرب من دورة كاملة ، ووضعوا أسسا ومبادئ لا تزال نهتدى بها حتى اليوم، ومن أهم ما اتجهوا إليه تكوين لجان خاصة تقوم بالبحث والدرس ؛ قبل العرض على الهيئة العامة . وأصبح من تقاليد المجمع الثابتة ألا يعرض على مجلسه موضوع قبل أن يستوفى بحثه ودرسه على أيدي المختصين .

وكان المجمعون أنفسهم فى البداية دعامة هذه اللجان ، ثم استعانوا بالخبراء ، وهذا تقليد آخر ربط المجمعين بأهل الصنعة، كل فى ميدان اختصاصه . ويعد هذا التقليد مبدأ هاما من مبادئ العمل المجمعى ، ونخطىء كل الخطأ إن زعمنا أن المجمعين صناع ألفاظ وتعبيرات، ولجان المجمع مفتوحة لكل من له صلة بها من أعضاء، ولخبراء فيها منزلة خاصة . وحرص توفيق رفعت على أن يسهم فى بعض هذه اللجان ، وكان له فى بحوثها ومناقشاتها دور ملحوظ . وفى هذا ما يؤكد أن رئاسة المجمع لم تكن يوما وظيفة شرفية ولا عملا إداريا ، بل هى مهمة تنظيمية يكاتبها الزملاء إلى واحد منهم .

واستن توفيق رفعت سننا أخرى كتب لها البقاء والحياة ، ومنها بدء كل دورة بعرض ما تم من أعمال وقرارات فى الدورة السابقة، وكان يتولى هو بنفسه هذا العرض . ونما هذا التقليد وتوسع فيه ، واضطلع به الأمين العام للمجمع . وفيما عرضه توفيق رفعت وثائق تاريخية لها وزنها .

ومن سننه استقبال الأعضاء الجدد ، وتوديع الراحلين ، وتلك سنة رأى فيها المجمع آية من آيات الوفاء والتقدير ، وبابا فسيحا من أبواب البحث والدرس ، وعناية بالفكر المعاصر فى مختلف نواحيه . ولكل من الاستقبال والتوديع جلسة علنية تسجل أعمالها ، وتنشر بحوثها ، وقد اضطلع توفيق رفعت نفسه باستقبال خمسة أعضاء جدد وهم أحمد إبراهيم ، وانطون الجميل ، وأحمد حافظ عوض ، وحسن القاياتى ، وعلى توفيق شوشه . وودع اثنين هما حسين والى ، وعبد القادر حمزة .

وله اقتراحات كثيرة نكتفى بأن نشير إلى بعضها ، وفى مقدمتها طبع معجم فيشر والتعاقد معه على إخراجه ، ولهذا المعجم تاريخ طويل ، فقد عاش معه صاحبه نحو ٥٠ عاما ، وكنا نود أن نتوجه على أيدي مجمع القاهرة ، ولكن الحرب العالمية الثانية حالت دوننا وما نريد ، وحاولنا جمع ما تفرق من جزايات هذا المعجم ، ولم شمله دون جدوى ، وذهب مع التاريخ ، ولم نحصل إلا على قدر يسير .

وعنى توفيق رفعت بالمصطلح العلمى فشجع لحائه ونوعها ، ودعا إلى حفظ مقرراتها فى جزازات خاصة على نحو ما اقترحه مجمعى آخر ، وهو لويس ماسينيون ورأى فوق هذا أن تنشر فى «مجلة المجمع» ، وفى بعض النشرات الخاصة . وما أحوجنا أن نربط لغة العلم فى مصر بأخواتها فى العالم العربى جميعه ، وفى تكوين المجمع ما يهدف إلى ذلك . ولهذا شجع توفيق رفعت على اشتراك المجمع فى المؤتمرات العلمية التى تعقد فى مصر أو خارجها ، وفتح الباب لمن شاء أن يسهم فيها من أعضاء المجمع بل كان يحرص على أن يرسل باسمه ممثلون معينون .

ومع كل هذه التوجيهات والتجديدات لا يفوتنا أن نشير إلى أن رئيس المجمع الأول كان أميل إلى المحافظة وأحرص على القديم ، وشاء القدر أن يخلفه رئيس آخر من دعاة التجديد والإصلاح وهو أحمد لطفى السيد تلميذ جمال الدين الأفغانى ، وصديق محمد عبده ، وقد جراه فى القول بضرورة إنشاء مجمع لغوى ينهض بالعربية ويمكنها من أن تسد حاجات العصر :

ويعد لطفى السيد بحق أول من وضع فكرة إنشاء مجمع لغوى موضع التنفيذ على شكل واضح : بدأ بهذا عام ١٩١٦ فيما سُمى «مجمع دار الكتب» ، التى كان مديراً لها وأريد به أن يكون كاتب سر هذا المجمع ، وقد كون من كبار الشيوخ والعلماء وجمع بين العرب والمصريين ، وقدر له أن يعمر بضع سنين ، ثم جاءت ثورة سنة ١٩١٩ ، فاعترضت طريقه ، وانخرط لطفى السيد نفسه فى غمار هذه الثورة ، وعد من قادتها . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فكرته الغالية عام ١٩٣٢ يوم أن كان وزيراً للمعارف ، واستطاع أن يحول هذه الفكرة من حركة أهلية إلى هيئة رسمية ، وصدر المرسوم الملكى بإنشاء المجمع عام ١٩٣٢ ، وصدر بتكوينه مرسوم آخر عام ١٩٣٣ ، ولم يكن لطفى السيد من أعضائه ، مع أنه كان الداعى والمحرك للموضوع ، وهكذا كان لطفى السيد دائماً فى كل دعوات الإصلاح ؛ يذكر هدفه ، وينسى نفسه .

وفى عام ١٩٤٠ فقط ، دخل المجمع على رأس الرعيل الثانى الذى اشتمل على عشرة من صفوف أصدقائه ، أمثال محمد مصطفى المراغى ، وعبد العزيز فهمى ، أو من صفوف تلاميذه أمثال : مصطفى عبدالرازق ، ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وفى عام ١٩٤٥ ، اختير رئيساً للمجمع ، واستمسك زملاؤه برياسته طوال حياته إلى عام ١٩٦٣ ؛ برغم رغبته المتكررة فى أن يخفف من أعبائه ، وله فى المجمع أياد كثيرة وآثار خالدة .

فعلى يديه فرق بين مجلس المجمع ومؤتمره ويضم المجلس أعضاء المجمع المصريين الذين درجوا على أن يعقدوا جلسة يوم الاثنين من كل أسبوع ، وحددت دورة المجلس بثمانية أشهر ، تبدأ يوم الاثنين الأول من أكتوبر وتنتهى يوم الاثنين الأخير من مايو .

وأصبح هذا تقليدا ملتزما حتى اليوم ، وقد تضاف بعض الجلسات فى أيام أخرى بموافقة المجلس ، ويجمع المؤتمر بين الأعضاء المصريين والعرب والمستعربين ، ويعقد مرة كل عام وكانت مدة انعقاده طويلة فى البداية ، ثم قضت أعباء الحياة قصورها على أسبوعين رعاية لظروف الضيوف المشاركين ، ويعرض على المؤتمر فى كل دورة ماسبق للمجلس أن أقره ، ولا ينشر شىء باسم المجمع إلا بعد إقرار المؤتمر له .

ولطفى السيد مستحدثات أخرى ، نذكر من بينها جوائز المجمع الأدبية ، فقد شاء أن يأخذ المجمع بيد شباب الكتاب وأن يشجعهم على التأليف والكتابة . وتشاء الظروف أن تكون أول جائزة أدبية للمجمع من تبرع سيادة كريمة هى هدى شعراوي . ثم خصص بعد هذا للجائزة الأدب اعتماد فى ميزانية المجمع ، بدأ رهزيا ، ثم نما على مر الزمن .

وكان شباب الكتاب يسعدون بالجائزة الجمعية برغم تواضعها ، ويكفى أن أشير إلى أن الأستاذ نجيب محفوظ شيخ كتاب القصة المصريين اليوم كان من أوائل من حصلوا عليها . وقد قصرت فى البداية على شباب المصريين ، ثم فتحت بابها للمتسايقين فى العالم العربى جميعا ، وأضيفت أخيرا جائزة أخرى لإحياء التراث ، وما كان أحوجنا إليه .

ويرمى لطفى السيد ظلما بأنه كان من أنصار العامية ، ويظهر أننا نسينا ما كان له من يد فى تخريج جيل من أقلام الصحفيين الأوائل الذين جمعهم «الريادة» أمثال : طه حسين ومحمود عزمى ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد حسن الزيات .

وكان لطفى السيد قلمه ومحفوظاته القيمة فى الأدب العربى ، وكثيرا ما أصغى لها الجمعيون واستمتعوا بسماعها ، وكان يهدف خاصة إلى أن يقرب العامية من الفصحى وأن يجمع الأمة العربية على لغة خطاب واحدة ، وهذا هدف نتمناه جميعا . ونأمل أن نصل إليه إن قضينا على الأمية ، وثقنا الناشئين بثقافة عربية كاملة ، ورغبة فى التقريب بين العامية والفصحى ، دعنا إلى البحث عما تشتمل عليه لغة أصحاب الحرف المختلفة من ألفاظ عربية الأصل ، وهذا هدف لا يزال الجمعيون يناشرونه . وقد دعنا لطفى السيد إلى البحث عما اشتمت عليه لغة هذه الحرف من ألفاظ عربية تمكنا من مواجهة متطلبات العلم والتكنولوجيا المعاصرة ، وكون المجمع لذلك جنودا كان على رأسها إسماعيل مظهر .

وحرص لطفى السيد الحرص كله على أن يباعد بين المجمع والسياسة ، برغم أن مجتمعنا كان يحمل اسم الجالس على العرش ، فسمى «مجمع فؤاد الأول» ثم «مجمع فاروق» . ولم يكن لهذه التسمية أية دلالة خاصة لدى الجمعيين وحظى بعضوية المجمع بعض قدامى السياسيين ، ولكنهم كانوا يخلعون رداءهم السياسى قبل أن يتخطوا عتبة دار المجمع . ولا أشك في أن كثيرين منهم كانوا يسعدون بالروح العلمية التي سادت بحثهم ومناقشتهم ، وكانوا يرون في العمل المجمعى ضربا من الترويح . وشاءت بعض الأحزاب السياسية دون جدوى أن تبسط شيئا من سلطانها على هذه الحياة ، وأبعد لطفى السيد السياسى القديم هذه الأهواء عن صومعة الخالدين .

ورئيس المجمع الثالث هو طه حسين تلميذ لطفى السيد وربيبه ، اتصل به منذ فجر هذا القرن وتوفقت العلاقة بينهما على مر الزمن . وما كان أشد إخلاص التلميذ للأستاذ ، وأعظم إعجاب الأستاذ بتلميذه . جمعت «الحريدة» في البداية بينهما ، وتأكدت العلاقة بينهما في الجامعة المصرية القديمة ، وكان لطفى السيد صلة بها . وما إن عاد طه من بعثته حتى اتجه نحو الصحافة مرة أخرى ، وله في السياسة الأسبوعية بوجه خاص توجيه ونشاط أثار الحركة الفكرية في مصر . ويوم أن أصبح لطفى السيد مديرا لجامعة فؤاد الأول حرص على أن يربط الحاضر بالماضى ، وأن يضم الجامعة المصرية القديمة إلى الجامعة الحديثة ، وفتح الباب لطفه حسين كي يؤدي رسالته في كلية الآداب . ويوم أن اعتدت السياسة على استقلال الجامعة ، وأخرجت طه حسين من كلية الآداب لم ير لطفى السيد بدأ من أن يقف إلى جانب تلميذه وصديقه وقدم استقالته التاريخية .

وعلى بساط مجمع اللغة العربية التقى طه حسين بلطفى السيد في ميدان آخر ، وتعاونوا ما وسعهما على دفع حركة التجديد والسير إلى الأمام . وكان من أول الأمور التي واجهتهما مسألة وضع معجم ألفاظ القرآن ، وقد أيدها لطفى السيد وطه حسين معا ، وإن باعد هذا بينهما وبين الأستاذ الأكبر مصطفى المراغى بعض الشيء . وتلى هذا موضوع آخر كان أعظم خطورة ، وهو الاقتراح الذى قدمه عبد العزيز فهمى ، وهو صديق الطرفين ، داعيا إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، وقد قضى المجمع دورة كاملة ، في مناقشة هذا الاقتراح ، ومن الظلم أن يُعزى إلى طه حسين أنه كان من مؤيديه .

ويكفى أن أشير إلى أن المجمع كله رفضه جملة وتفصيلا . والحديث عن الحروف اللاتينية أُلصق بالماضى ولا محل له في الحاضر ، ومن اللغظ أن نعود إليه مرة أخرى . سبق

للمجمع أن تعاقد مع المستشرق الألماني فيشر على إخراج معجمه التاريخي ، إلا أن هذا العقد لم يحقق مع الأسف أهدافه ، وكان لابد للمجمع من أن ينعونحو نحو آخر ، فشكّلت لجنة لذلك وكان من حظي أن أسهمت فيها ، وانهقد الرأي على أن هناك نصوصا أدبية ولغوية قديمة ، وأن إحياءها شرط أساسي لاستكمال مصادر المعجم التاريخي ، ولهذا استقر رأي على أن يقنع المجمع الآن بإخراج معجم كبير يعنى بأصول اللغة ومستحدثاتها ويفتح صدره للغة العلم والحضارة ويكمل سلسلة المعجم الوسيط . وشاء طه حسين راغباً أن يتولى بنفسه أمر هذا المعجم وقضى عشر سنوات يعد له ، ويوم أن دُعي إلى الوزارة رغب زملائه جميعاً أن يخففوا عنه ولكنه أبقى إلا أن يتابع جهده السابق وأخرج من هذا المعجم تجربة وزعت على الباحثين والدارسين لكي يبدو ما يعنى لهم من نقد أو ملاحظة وكانت هذه التجربة دعامة العمل في المعجم الكبير ، وقد أخرج منه جزء في حياة طه حسين ولحقه جزء آخر بعد مماته والعمل فيه طويل النفس ، وسيدكر طه حسين ما ذكر هذا المعجم وما تداوله الباحثون والدارسون .

ولطه حسين مواقف أخرى في مجمع الخالدين سجلتها محاضر المجلس ومؤتمره ، وأختم حديثي بموقف واحد منها وهو تيسير النحو على الناشئين ، وتلك قضية عاش معها طه حسين منذ خمسين سنة تقريبا ، فقد اشترك في لجنة كونتها وزارة المعارف لهذا الغرض عام اثنين وثلاثين ، بناء على رغبة محمد جبهى الدين بركات الذي كان وزيرا للمعارف حين ذلك ، وانتهت هذه اللجنة إلى مقترحات حفظت في ملفات الوزارة زمانا ، ثم رُئي عرضها على المجمع ولم يكن فيها أى جديد بالنسبة لطه حسين وكان كل همهم بعد أن أقرها المجمع مع تعديل طفيف أن تأخذ طريقها إلى العمل والتنفيذ ، وطالب المجمع وزارة المعارف بأن تضع كتباً تتمشى مع هذه المقترحات وتبرع هو نفسه أن يسهم في هذه الكتب أو يراجعها ولم تستجب وزارة المعارف لدعوته ولكن فكرة التيسير تسير في طريقها ، وأعتقد أن القائمين على أمر تعليم اللغة العربية في مدارسنا الأميرية والخاصة يدركون تماما أن اللغة تتعلم عن طريق الحوار والقراءة والمطالعة ، وكأني بهم يتخففون الآن من القواعد النحوية ما استطاعوا .

هؤلاء هم شيوخ الخالدين الثلاثة الذين قادوا السفينة ووضعوا تقاليد نهدي بها ونسير على نهجها . وإذا كنا نذكرهم في عيد المجمع الذهبي فإن الباحثين والدارسين سيدكرونهم على الدوام .

الدكتور ابراهيم مدكور
رئيس المجمع